تزوج لأنه كان يريد بيتاً واستقراراً وحياة زوجية سعيدة.. تزوج محمد وواصل حياته يشارك قومه في نشاطاتهم، ومن أهمها:

بناء الكعبة
ووضع الحجر الأسود

لما بلغ محمد عليه السلام الخامسة والثلاثين من عمره، كانت الكعبة في هيئة تحتاج إلى ترميم وإصلاح، فقد كانت (مبنية بالرضم[١]، ليس فيها مدر[٢]، وكانت قدر ما يقتحمها العناق[٣]، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثياب عليها، ثم تسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها، بادياً، وكانت ذات ركنين، كهيئة هذه الحلقة[٤]، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قرباً من جدة انكسرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها، فأخذوا الخشب، أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا بالخشب، وقَدِمُوا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب بيت ربنا.

فلما أن أرادوا هدمه، إذا هُمّ بحية على سور البيت، مثل قطعة الجائز، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد من البيت ليهدمه، أو يأخذ من حجارته سعت إليه فاتحة فاها، فاجتمعت قريش عند الحرم، فعجوا[٥] إلى الله، وقالوا: ربنا لم نرع، أردنا تشريف بيتك وترتيبه، فإن كنت ترضى بذلك وإلا فما بدا لك فافعل. فسمعوا خواراً[٦] في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر.. أسود الظهر، وأبيض البطن والرجلين، فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق يجرها، وذَنَبُها أعظم من كذا، وكذا، ساقط حتى انطلق بها نحو أجياد، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة

---

(١) الحجارة يجعل بعضها على بعض.
(٢) المدر هو الطين اللزج.
(٣) أي أن جدارها قصير لدرجة أن العناق تستطيع اقتحامها، والعناق أنثى أولاد الماعز.
(٤) مثل حرف D.
(٥) رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله.
(٦) الخوار هو صوت البقر والغنم والظبا والسهام.

الوادي.. تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً)[1] وذلك بعد أن أخذوا الحجر الأسود، وكان محمد ﷺ يشاركهم في ذلك البناء، وكان ممن ينقل الحجارة من الوادي، عندما ناداه مناد لا يعرفه، ولا يستطيع أن يراه، وسبب النداء، أنه كان (يحمل حجارة من أجياد -وعليه نمرة[2]- إذ ضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه، فبدت عورته من صغر النمرة فنودي: يا محمد، خَمِّر[3] عورتك. فلم يُرَ عرياناً بعد ذلك) [4].. فهل كان هذا النداء هو:

النداء الأول لمحمد ﷺ

جاء ذلك في وصف الكعبة وبنائها بعد أن سمعت قريش (إن سفينة لروم أقبلت، حتى إذا كان بالشعيبة انكسرت، فسمعت بها قريش، فركبوا إليها، وأخذوا خشبها، وروميي يقال له: باقوم. نجار، بان[5]، فلما قدموا مكة قالوا: لو بنينا بيت ربنا عزوجل، واجتمعوا لذلك، ونقلوا الحجارة، من أجياد الضواحي، فبينا رسول الله ﷺ ينقل إذ انكشفت نمرته فنودي: يا محمد عورتك. فذلك أول ما نودي والله أعلم، فما رؤيت له عورة بعد)[6].

وكان الذي أشار عليه برفع إزاره هو عمه العباس، فقد قال له: (يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة. ففعل ذلك، فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك اليوم عرياناً)[7].

وقد شهد العباس هذه الحادثة، وكتمها، ولم يقصها إلا بعد زمن طويل على ابنه عبد الله فقال: (كنت أنا وابن أخي -محمد ﷺ- ننقل الحجارة على رقابنا، وأزرنا

---

(١) ما بين الأقواس ليس بحديث لكنه خبر صحيح الإسناد رواه عبد الرزاق ٥-١٠٢ عن معمر، عن عبد الله، عن أبي الطفيل. معمر أحد الأعلام الثقات، التهذيب ١٠-٢٤٣ وشيخه عبد الله بن خثيم، تابعي ثقة حجة،التهذيب ٥-٣١٤ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) النمرة هي: كساء فيه خطوط بيض وسود.

(٣) أي غط عورتك.

(٤) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-١٠٢ من الطريق السابق.

(٥) أي كان يعمل في النجارة والبناء.

(٦) سنده صحيح، رواه البيهقي (١-٣٢٦). من طرق عن داود بن عبد الرحمن العطار، وهو ثقة. التقريب (١-٢٢٣) عن ابن خثيم، وقد مر معناه، عن أبي الطفيل.

(٧) حديث صحيح. متفق عليه.

تحت الحجارة، فإذا غشـــينا[1] الناس ائتزرنا، فبينا هو أمامي خر على وجهه منبطحاً، فجئت أســـعى إليه، وألقيت حجري - وهو ينظر إلى الســـماء- فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره، وقال: نُهيت أن أمشي عرياناً. فكنت أكتمها مخافة أن يقولوا مجنون)[2].

ارتفعت الكعبة من جديد، وشمخت شموخ التوحيد.. تشير بوحدانية الله، وابتهجت قريش بصنيعها وترتيب بيت ربها، ولم يبق سوى رد الحجر الأسود إلى مكانه، ووضعه في زاويته من الكعبة، فمن سيعيده.. من سيضعه.. من الأحق بهذا الشرف؟

إن بناء الكعبة واســـع لدرجة اســـتيعاب الآلاف للمشـــاركة فيه ونيل شرفه، لكن الحجر الأسود لا يحتمل أكثر من أذرع قليلة تحمله.

اختلفـــت بطـــون قريش وحق لها أن تختلف في مثل ذلـــك الزمن المتكئ على تلك العقول المتصحرة، والتي لا تحل الأمور الصعبة إلا بأســـنَّة الرماح، وأنهار الدماء. ألم يحدثنا التاريخ عن حروب دامت عشرات السنين، وثار غبارها من أجل سنام جمل، أو مضمار خيل.. إنها أمة تعشق الدماء والسلب والنهب، وتهيم بالثأر، أما الثقافة المكتوبة والعلـــم، فهما في كوكب، وهؤلاء في كوكب آخر.. إنهـــا أمة لا تقرأ ولا تكتب.. أمة لم تؤلف كتاباً واحداً، ولم تبن مدرسة.. أمة ذات ثقافة شفهية تجيد عد الجماجم وسفك الدماء، والمفاخرة بصخور وأخشاب تسميها آلهة، لكنها تجمع على احترام هذه الكعبة وحجرها الأسود.

لذا فإن إبـــل الأرض وخيلها وغنمها، والخصومة عليها، لا تطاول الخصومة على أقدس الأشـــياء التي احتلت قلوب العرب قبل أراضيها: الكعبة والحجر الأســـود، فهل ستصبغ قريش كعبتها بدماء أبنائها.. هل هناك مخرج آخر لهذه الأزمة.. لهذه الكارثة التي تطل من موضع الحجر؟

كان الله رحيماً بهؤلاء العرب عندما قرروا تحكيم أول رجل يدخل عليهم المسجد، فكانت هذه القصة التي يرويها لنا شاهد عيان شارك وبنى، وحضر الخصومة.

---

(١) أي أقبلنا عليهم واختلطنا بهم.

(٢) حســـن، رواه يونـــس بن بكير. ابن إســـحاق (٥٧) مـــن طريق عمرو بن ثابت وهو ضعيف عن ســـماك عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه. عكرمة ثقة وسماك قوي إلا عن عكرمة، لكن الحديث حسن انظر صحيح موسوعة السيرة. والقائل: كنت أكتمها هو العباس.

يقول هذا الرجل: كنت (فيمن يبني الكعبة في الجاهلية، ولي حجر أنا نحته بيدي أعبـده من دون الله، فأجيء باللبن الخاثر، الذي أنفسـه على نفسـي، فأصبه عليه، فيجيء الكلب، فيلحسـه، ثم يشغر[1] فيبول. فبنينا حتى بلغنا الحجر، وما يرى الحجر منا أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل، يكاد يترايا منه وجه الرجل. فقال بطـن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: بل نحـن نضعه. حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف.

فقالوا: اجعلوا بينكم حكماً. قالوا: أول رجل يطلع من الفج[2] فجاء النبي ﷺ.

فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له. فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو)[3] وبيده الكريمة أوقف سـيلاً من الدمـاء كاد أن ينفجر، وفرقة بين أهل مكة كادت أن تبيدهم.. ساقه الله إليهم، فلما لمحوه أشارت قلوبهم قبل أصابعهم: أتاكم الأمين. اسم انتزعه من مكة كلها.. من رجالها ونسائها وأطفالها.. من شوارعها وأزقتها.. من أبوابها وجدرانها.. من نسـمات الهواء وحبات الرمل.. مكة كلها سـمته الأمين.

سـمته الأمين وهو يرعى أغنامها، وسمته الأمين وهو يبيع ويشتري يتعامل معها، ولعل أشـد الناس تأثـراً بأمانته وصدقه: صفيه وحبيبه وصديقـه: عبد الله بن أبي قحافة الملقب بـ(أبي بكر) لقد تأثر الجميع بأمانته لا سيما بعد أن بدأ:

يشتغل بالتجارة

فلقـد كبر محمد وكبرت أمانته، فترك رعي الأغنام ليدخل إلى عالم آخر.. عالم الاقتصاد، ليبيع ويشـتري، ويربح، ويتنامى نشـاطه وماله وعلاقاتـه.. إنه الآن يقيم شـراكة مالية متينة بينه وبين رجل من قومه اسـمه: السـائب بن أبي السائب، وكان السائب ينافس أبا بكر في القرب منه ﷺ.

---

(١) أي يرفع إحدى رجليه ليبول.

(٢) الفج: الطريق الواسع البعيد.

(٣) سـنده صحيـح رواه أحمد ٣- ٤٢٥ وأبـو نعيم في الدلائل من طرق عن ثابت بـن يزيد، حدثنا هلال بن خباب عن مجاهد عن مولاه قال. وهؤلاء كلهم ثقات.ثابت ثقة، وكذلك هلال بن خباب العبدي، التقريب- ١٣٣و٥٧٥، ومجاهد تابعي ثقة معروف.

يحدثنا عن ذلك السائب نفسه فيقول: (أتيت النبي ﷺ فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال رسول الله ﷺ: أنا أعلمكم يعني به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمي ﷺ مرحباً بأخي وشريكي)[1] كنت شريكي ﷺ في الجاهلية)[2] فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري)[3].

أصبح لدى محمد مال، فاشترى عبداً اسمه زيد بن حارثة[4] لكنه لم يعامله معاملة غيره لعبيدهم، بل لم يعمله معاملة الخادم.

لقد تبناه وسماه زيد بن محمد، وأحبه حبا شديدا كأنه من صلبه، ولم يشغله حب بناته عن حبه:

بنات محمد

أربع بنات كالزهرات: أكبرهن زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة أصغرهن سناً. ملأن حياته وحياة خديجة بالجمال والبراءة، وملأ حياتهن بالحب والعطف والدلال.. يساعدن أمهن في ترتيب بيتهن وتنظيفه، ويلعبن خارجه مع صديقاتهن بين بيوت مكة الصغيرة، فإذا ما رأينه تسابقن إليه، أيهن تحضى بالعناق الأول والقبلة الأولى.. أيهن تأخذ منه ما يحمله من مشتريات، كم تدللن وهن يطالبنه بشراء ثياب جديدة، وألعاب جديدة، وكم خاطت لهن خديجة الألعاب والملابس، وكم جاءت إحداهن تبكي وتشتكي أخذ أختها للعبها، كم مرة أخذتهن زينب خارج البيت، وكم صعدت رقية على أكتافه، وامتطت أم كلثوم ظهره، وكم أقبلت فاطمة تحبو نحوه وهي تلثغ بأحرف جميلة.. وخديجة تنظر إلى تلك المشاهد الساحرة وتبتسم، كم سرحت شعورهن وانتقت لهن الحلي والملابس، كم تشعر خديجة بالسعادة مع هذا الزوج الجميل الرائع، وكم هي سعادتها وهي ترزق بهن بعد سن الأربعين..

أما زوجها فقد أجلّه الجميع واحترمه وأحبه كل من عرفه، ولم يقتصر هذا الحب على احتلال القلوب. لقد انداح في كل اتجاه حتى لقد أحبته الأشجار والأحجار:

---

(١) زيادة عند الحاكم (٢١-٦١).

(٢) زيادة عند الحاكم (٢١-٦١).

(٣) سنده قوي رواه ابن أبي الدنيا في الصمت ١٠٧ حدثنا أحمد بن جميل أنبأنا عبد الله بن المبارك أنبأنا المسعودي حدثنا الأعمش عن مجاهد: حدثني مولاي عبد الله بن السائب. والمسعودي هو الثقة كما في الآحاد والمثاني ٢- ٣٣ واسمه عبد الملك بن معن.التقريب ٣٦٥

(٤) سيمر معنا بعد قليل حديث فيه إشارة إلى ذلك وستأتي أحاديث أخرى.

حتى الحجارة تحبه

حجارة صماء في مكة كانت تسلم عليه إذا مر بها، فكان يحمل ذكراها في قلبه ويحدث بها أصحابه.. يحدثهم عن ذلك الحب فيقول: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث)[1].

إن للكون الصامت حولنا من التراتيل والصلوات بقدر ما نشهده من صمت وسكون، لكن الكون يريد قلباً.. يريد عقلاً ليكتشف ذلك المعبد فيه. وهب الله ذلك الحجر لغة الإنسان فكلم محمداً، أم وهب محمداً إدراكاً ليفهم لغة الحجر، فكان ذلك السلام، وكان ذلك الحب الذي بدأ بين محمد ﷺ ومكة، وانتهى بمحمد وما وراء مكة.

هذا السلام، وذلك الهاتف الذي أمره بتغطية عورته، والطائران اللذان شقا صدره في مرابع أمه حليمة ... أشياء غريبة تحدث لا يجد لها تفسيراً، فيلجأ إلى حبيبته خديجة، إلى قلبها الدافيء فيقول يا خديجة: (إني أرى ضوءاً، وأسمع صوتاً وإني أخشى أن يكون بي جنن - فتقول له: لم يكن ليفعل ذلك يا ابن عبد الله)[2]، ثم تستأذنه في الذهاب لابن عمها القس النصراني الطاعن في السن (ورقة بن نوفل) لتسأله، عله يجد جواباً في الكتاب المقدس لما يحدث لزوجها.

فيجيبها ورقة قائلا: (إن يكن صادقاً، فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعززه وأنصره وأؤمن به)[3] حتى هذا القس كان يتوجس.. ينتظر، فالوضع على الأرض أكثر من سيئ، وبحاجة إلى منقذ يزيح هذه الأصنام والخرافات الجاثمة، ويرتقي بهذا الإنسان المرتكس في الوحل، أما محمد فكانت أقواله وسلوكياته تقول:

لا أصنام

كان محمد ﷺ يحس بتفاهة هذه الطقوس وتخلفها.. كان يحتقر أصنامهم، ويرفض كل ما يمت لها بصلة. ها هو مع ابنه بالتبني زيد بن حارثة.. أمام أحد الأصنام، وها هو

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٧٨٢.

(٢) سنده حسن رواه أحمد ١-٣١٢ من طريقين عن حماد: أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس. وأخبرنا عمار بن أبي عمار.. مرسلاً. والمسند أصح، لأن الراوي عن حماد في المرسل هو عفان ثقة ثبت. والرواة عن حماد في المسند فهما ثقتان، وهما: مظفر بن مدرك والحسن بن موسى الأشيب.

(٣) حديث حسن هو السابق.

زيد يحدثنا عما جرى فيقول: (كان صنم من نحاس يقال له إســاف، أو نائلة يتمسح به المشركون. إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ، وطفت معه، فلما مررت مسحت به. فقال رسول الله ﷺ: لا تمسه، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يكون. فمسحته.

فقال رســول الله ﷺ: ألم تُنْه؟ فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه)[1].

حتــى في الحج، وفي يوم الوقوف بعرفة.. يخالــف قومه الذين تطرفوا، فأرادوا منح أنفســهم امتيازاً على بقية الناس، وذلك بوقوفهم عشية ذلك اليوم بمكان يقال له مزدلفة. أما هو ﷺ فقد كان يخالفهم.. كان يقف بعرفة من بين قومه كلهم.

لقد (كانت قريش، ومن يدين دينها - وهم الحمس[2] - يقفون عشية عرفة بالمزدلفة ويقولون: نحن قطن البيت. وكان بقية الناس والعرب يقفون بعرفات)[3].

يقول أحد الذين رأوا محمدا يخالف تطرف قومه واسمه: جبير بن مطعم: (رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس "من بين قومــه" حتــى يدفع معهم توفيقاً من الله عز وجل لــه)[4]. ويقول جبير أيضاً: (أضللت بعيــراً لي يوم عرفة، فخرجت أطلبه، فرأيت النبي ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة. فقلت: هذا من الحمس، فما شأنه هاهنا)[5].

كان امتيــاز قريــش هنا زائفاً، ففر الصواب من بين جموعهم واســتقر على بعير محمد ﷺ. تلك هي الفطرة الســليمة التي تأبى الانحــراف، وتلك هي الغربة المريرة التي يعانيها أفذاذ من الـ:

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي من طرق عن الحسن بن علي بن عفان، وهو ثقة التهذيب ٢-٣٠٢ حدثنا حماد بن أسامة وهو ثقة ثبت، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث التهذيب ٩-٣٧٥ عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. وهما تابعيان ثقتان من رجال التقريب، عن أسامة بن زيد عن أبيه.

(٢) سموا كذلك لتشددهم في دينهم وقيل لأنهم كانوا لا يستظلون أيام منى.

(٣) متفق عليه.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد٤-٨٣: حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عثمان بن أبي ســليمان، عن نافع بن جبيــر بن مطعم عن أبيه. عبد الله وعثمان ونافع كلهم تابعون ثقات من رجال التقريب ٢٩٧و٣٨٤و٥٥٨.

(٥) متفق عليه.

غرباء

كان محمـــد ﷺ غريباً في أرض مكة، وجوه يعرفهـــا وقلوب ينكرها. كان موحداً على دين أبيه إبراهيم.. يدرك أن الله أعظم شـــأناً من أن يصاغ من حديد أو نحاس، أو ينحت من الصخر أو الخشـــب. كان يدرك عظمة هـــذا الكون وعظمة خالقه، وفي الغربة نفســـها يعيش أفراد قليلون جداً.. يتوجهون إلى خالقهم الأحد، ويعرضون عن هـــذه الأصنام التي زاحمت الناس على هذه الأرض بغير حق، فعبر الروابي والهضاب والصحاري.. يسيرون حثيثا بحثاً عن الحق..

زيـــد بن عمرو بن نفيـــل، وورقة بن نوفل.. بعض هـــؤلاء الغرباء.. أصحاب عقول ناضجة، لم يستسيغوا تلك الحجارة الصماء البكماء الموضوعة فوق الكعبة، ولا ما ينسج حولها من أســـاطير وخرافات، فأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد (خرج إلى الشام يسأل عـــن الدين ويتبعه، فلقى عالماً من اليهود فســـأله عن دينهم. فقـــال: إني لعلى أن أدين دينكم فأخبرني؟ فقال: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله.

قـــال زيد: وما أفر إلا مـــن غضب الله تعالى، ولا أحمل من غضب الله شـــيئاً، ولا أستطيعه فهل تدلني عليه؟ قال اليهودي: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً.

قال زيد: وما الحنيف؟ قال اليهودي: دين إبراهيم عليه السلام، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيـــد، فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله.

قال زيد: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله. ولا من غضبه شيئاً أبداً، ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً.

قـــال زيد: وما الحنيف؟ قال النصراني: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم)[1].

---

(١)حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٩١.

ويعـــود زيد إلى مكة غريباً كيوم غادرها.. يرمق مكة ويرمق جموعها.. أحقاً كانت هـــذه الأرض أرض التوحيد؟!! ما بالهم يشـــركون؟!! ينظر نظرة من ملأ قلبه الأســـى واللهف.. تشـــاهده وتتعجب من حاله الطفلة أسماء بنت أبي بكر.. تراه (مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم)[1]. ثم يؤدي حركة غريبة كغربته.. حركة تتوهج شوقاً إلى الله، وشوقاً يعبر عما في قلبه من حرقة، تقول أســـماء: (ثم يســـجد على راحته، وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم)[2].

لقد كان هذا الغريب إنســـاناً عظيماً، ولا يتفوق عليه في ســـلامة الفطرة وصفاء الفكر إلا محمد ﷺ. لقد كان يرى الرجل يحمل ابنته الصغيرة على ذراعيه.. مسرعاً بها نحو حفرة تلتهب بالرمضاء، ليدســـها فيها، فينهض زيد مسرعاً ويعترض طريقه، ويتوســـل إليـــه آلا يفعل، فإذا أصر (أن يقتل ابنته قـــال: لا تقتلها أنا أكفيكها مؤونتها. فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها)[3]. كان زيد يأخذ تلك البريئة الضعيفة.. يحملها إلى بيته يرعاها ويحنو عليها، لأنه يعرف أن الله أرحم من عباده، وأنه لم يخلقها لتدفن بعد مولدها.

أمـــة وحـــده زيد بن عمرو بن نفيـــل.. رجل بمقاييس أمة.. هكـــذا عاش، وهكذا سيبعث عندما تبعث الأمم (أمة وحده يوم القيامة)[4].

عاد زيد إلى مكة، ولم تكن عودته ليأســـه مما ملأ الأرض من رموز الشـــرك، بل عاد لينتظر، فلقد أرشده بعض الرهبان إلى قرب مخرج نبي مرسل في أرض الحجاز. زيد نفســـه يقول: (شاممت النصرانية، واليهودية فكرهتهما، فكنت بالشام، وما والاه،

---

(١) ســـنده صحيح. رواه ابن إســـحاق ٩٦، حدثني هشـــام بن عروة عن أبيه، عن أمه أسماء بنت أبي بكر. ابن إسحاق لم يدلس وشيخه ثقة معروف، ووالده أوثق منه.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٩١ .

(٤) ســـنده قوي رواه الطبراني ٥-٨٦ من طريق أحمد حدثني حماد بن أســـامة وأبو يعلى ١٣-١٣٧ من طريق آخـــر كلاهما عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي ســـلمة و يحيى بـــن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة عن أســـامة بن زيد عن زيد بن حارثة، وهو ســـند حســـن رجاله ثقات إلا ابن علقمة فهو صدوق له أوهام التقريب ٤٩٩ أي حسن الحديث.

حتـــى أتيت راهباً في صومعة، فوقفـــت عليه، فذكرت له اغترابي عن قومي، وكراهتي عبـــادة الأوثان، واليهودية، والنصرانية. فقال لـه الراهب: أراك تريد دين إبراهيم، كان حنيفاً، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، كان يصلي ويســـجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فالحـــق ببلدك، فإن نبياً يبعث من قومك في بلدك، يأتي بدين إبراهيم بالحنفية، وهو أكرم الخلق على الله)[1].

أمـــا الرجل الآخر، والغريب الآخـــر فهو "ورقة بن نوفل" الذي انتظر ذلك الخروج كما انتظر زيد، وبقي ينتظر نزول الوحي الذي يبدو أنه ليس ببعيد، فهذه الأمور:

لا تحدث إلا لنبي

تتصاعد الأحداث حول محمد ﷺ، وتنحت في نفسه الوجوم والاستفهام.. أصوات وأضواء.. أسرار وأقفال، وماذا بعد..؟

النـــاس لن تصدق، والصمت مرير، وليس ســـوى خديجة مـــن منصت. ربما لدى بعض الناس من تفســـير، لكن من هذا البعض؟ ربما أخطأت أقدام الســـؤال طريقها، فتكون النتيجة كلمات كالحميم.. كلمات لا تطاق: محمد مجنون.

لكن للّيل نهاية، ولا بد أن لهذا النفق من مخرج. إن الله رحيم ولن يترك هذا العبد الحائر في حيرته، فها هو الوحي يبدأ خفيفاً كهواء البحر المنعش.. يبشر بحياة جديدة لمحمد، وللأرض كلها، فكان (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[2]. أي أنها تتحقق وتحدث كما يتحقق الصبـــح ويأتي، ثم أصبح يفضل العزلة والتعبد في غار على قمة جبل يقال له حراء (حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العـــدد - قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)[3]،

---

(١) حديث حســـن رواه ابن ســـعد ١-١٦٢، أخبرنا علي بن محمد القرشي، عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه عـــن الشـــعبي، عن عبد الرحمن بـــن زيد بن الخطاب قال زيد.. علي قال عنه ابـــن معين: ثقة، ثقة، ثقة، وإسماعيل صدوق يخطيء التقريب ١٠٩ أي حسن الحديث، وفي والده ضعف، ويشهد له حديث البخاري السابق، والطيالسي ٢-١٦١ وفيه جهالة نفيل.

(٢) حديث صحيح. متفق عليه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ١-٤.

ثم يعود لذلك الغار والذي يستغرق الصعود إليه أكثر من ساعة، ولم يكن ذلك طوال العام بل (في كل سنة شهراً يتحنث، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة)[1].

لم يكن يمارس العبادة فقط في ذلك الشهر، بل كان ينزل أحيانا ليقوم بأعمال جميلة ورائعة فـ (يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد، وذلك الشهر: رمضان، خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد به)[2].

ليلة الحياة والقرآن

استمر محمد عليه السلام على ما كان عليه فـ (كان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد الليالي ذوات العدد- قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)[3]، فكان نهاره على ذروة ذلك الشاهق.. تأمل.. سياحة في هذا الكون الصامت الناطق.. الناثر في الصدور المنشرحة نوراً يهمس: لا إله إلا الله، أما ليله، فتبتل وتضرع، وكأنه يغرف من الليل سكونه وخشوعه.. كأن رياحه الباردة وهي تمر بباب الغار.. تبشر بعودة محبوب طال انتظاره.

واستمر ذلك الحب وتلك المناجاة، حتى جاءت تلك الليلة من ليالي شهر رمضان، وفي لحظة سكون مهيبة، وبعد غياب طويل، هبط كبير الملائكة (جبريل عليه السلام) على قمة الجبل، هبط وتقدم نحو باب الغار، فشعر محمد بخوف وقشعريرة من هذا الغريب الذي يسد باب الغار..

ها هو يقص أحداث تلك الليلة وما حدث له فيقول أنه جاءه (الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ.

---

(١) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.
(٢) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣).